شـعر التحـامق فى
العصر المملوكى الأول (فى مصر)

دكتور

غريب محمد على أحمد

مدرس الأدب العربى - كلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادى

شعر التحامق
فى العصر المملوكى الأول (فى مصر)

توطئة :

لا مندوحة للباحث من الاعتراف - فى البداية - بأن الأدب العربى من أكثر الآداب - إن لم يكن أكثرها - ازدخارا بفن الفكاهة الذى يعد ميدانا فسيحا من ميادينه ، وأن ثمة روادا كالجاحظ والوشاء وأبى حيان التوحيدى ، ومن تلاهم مثل ابن عبد ربه وابن الجوزى والأبشيهى [1] وغيرهم قد ارتادوا أرضه الفسيحة وقطعوا فيها شوطا بعيدًا حينما حشدوا كثيرًا من ألوان الفكاهة فى مؤلفاتهم ، وحينما حاول بعضهم أن يضع لهذا الفن تعريفات ويؤكد على وظائفه ، ويرسخ له أسسا سبق بها كثيرًا من علماء الغرب .

ولا مندوحة أيضًا من الاعتراف بأن ثمة بحوثا ودراسات جادة قد قدمت فى هذا المجال ، وقد دار الحديث فى بعضها حول الفروق بين الفكاهة والهجاء والسخرية بل

---

(١) انظر - الجاحظ - البخلاء - تحقيق : طه الحاجرى ط سابعه - دار المعارف سنة ١٩٩٠ م .
- الوشاء - الموشى - شرح وتقديم - عبد الأمير على مهنا ط دار الفكر اللبنانى سنة ١٩٩٠ م .
- أبو حيان التوحيدى - الإمتاع والمؤانسة شرح وتصحيح أحمد أمين وأحمد الزين منشورات مكتبة الحياة - لبنان .
- ابن عبد ربه - العقد الفريد - ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧ م .
- ابن الجوزى - أخبار الظراف والمتماجنين ط القدسى .
- ابن الجوزى - أخبار الحمقى - بدون تاريخ طبع .
- الأبشيهى - المستطرف فى كل فن مستظرف - ط ١ دار الجيل - لبنان سنة ١٩٩٢ م .

إن بعض الدراسات قد تخصصت فى لون واحد من تلك الألوان ، والبعض الآخر قد خصصها أصحابها لدراسة شخصية واحدة اشتهرت بهذا اللون أو ذاك [١] .

ورغم تلك الدراسات الكثيرة التى قدمت فى هذه الألوان المتعددة فلم تقع فى يد الباحث دراسة عن شعر التحامق الذى يعد لونا من ألوان الأدب الفكاهى إلا إشارة المرحوم الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية » [٢] والتى لاتزيد عن خمس صفحات ، وقد خصصها لشعراء التحامق فى تلك الفترة المحددة لبحثه وهو لم يذكر الأسباب التى دفعت بشعراء التحامق آنذاك إلى اللجوء إلى هذا اللون من الشعر ، كما أنه لم يدرس الظاهرة دراسة مستفيضة ، بالإضافة إلى أنه اقتصر على ما يمكن أن نسميهم واضعى بذور هذا اللون فى الشعر المصرى ، ولم يهتم المرحوم د. محمد كامل حسين بدراسة هذا الشعر دراسة فنية . ولكن على أية حال فلقد استطاع أن يطوق جيد دارسى الأدب الفكاهى فى مصر بأحقية السبق وأولية الإشارة إلى هذا اللون وأن ينبههم إلى ضرورة دراسة هذه الظاهرة التى وجدها الباحث بصورة لافتة للنظر فى العصر المملوكى الأول

---

(١) من هذه الدراسات :

- د. أحمد محمد الحوفى - الفكاهة فى الأدب العربى - أصولها وأنواعها ط نهضة مصر سنة ١٩٦٦ م .
- د. عبد العزيز شرف - الأدب الفكاهى ط أولى - أدبيات ١٩٩٢ م .
- عبد الغنى العطرى - أدبنا الضاحك - ط ثانية - دار البشائر لبنان سنة ١٩٩٢ م .
- عباس محمود العقاد - حجا الضاحك المضحك - ط نهضة مصر القاهرة .
- د. نعمان محمد أمين - السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ط دار الطباعة التوفيقية - مصر سنة ١٩٧٨ م .
- العدد الثامن من السنة الثانية والثمانين من مجلة الهلال - أغسطس سنة ١٩٧٤ م الذى يحوى دراسات ومقالات عن أدب الفكاهة وخاصة دراسة د. سيد نوفل عن « الفكاهة فى الأدب العربى القديم » .
- العدد الثالث من المجلد الثالث عشر من مجلة عالم الفكر سنة ١٩٨٢ م عن الفكاهة والضحك .

(٢) د. محمد كامل حسين - الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية (ص ١٨٤ - ١٨٨) سلسلة الألف كتاب سنة ١٩٥٩ م .

والتى لم تجد من الدارسين عناية خاصة أو دراسة فاحصة ولم تقع أيضًا فى يد الباحث إلا إشارة أحمد صادق الجمال فى كتابه « الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى » والجدير بالذكر أن الجمال قد درسه من وجهة نظر لغوية فضمه إلى الأدب العامى مما يجعلنا نشعر بأن الجزار وابن دانيال شاعران عاميان حينما نتصفح ذلك الكتاب . وممن أشاروا إلى هذا اللون تحت ما يسمى بشعر الفكاهة الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الفكاهة فى مصر » [١] ، وفى كتابه « عصر الدول والإمارات بمصر والشام » [٢] والدكتور « محمد زغلول سلام » فى كتابه « الأدب فى العصر المملوكى » [٣] والدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى » [٤] والدكتور بكرى شيخ أمين فى كتابه « مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى » [٥] .

وقد اقتصر الباحث فى دراسة هذه الظاهرة على العصر المملوكى الأول زمانا حيث ازدهر فيه هذا اللون ازدهارا وعج بمجموعة من الشعراء أكثروا منه إكثارا حتى ليخيل للباحث أنهم قد أجمعوا على الخوض فى هذا اللون وأنهم قد قصدوا إلى ذلك قصدا ، وكانوا غاية فى الصدق تعبيرًا عن ذواتهم وتصويرًا لحالاتهم ، كما اقتصرت الدراسة على مصر مكانا حتى لايتشعب البحث وتتعدد دروبه وتتسع رقعته المكانية فيضل الباحث فى مسالكه ويتوه فى مفازاته .

(١) د. شوقى ضيف - الفكاهة فى مصر - سلسلة اقرأ - العدد ٥١١ مايو سنة ١٩٨٥ م - دار المعارف .
(٢) د. شوقى ضيف - عصر الدول والإمارات - مصر والشام - ط دار المعارف سنة ١٩٨٤ م .
(٣) د. محمد زغلول سلام - الأدب فى العصر المملوكى ط ٢ - دار المعارف سنة ١٩٧١ م .
(٤) د. محمد كامل حسين - دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ط دار الفكر العربى سنة ١٩٥٧ م .
(٥) د. بكرى شيخ أمين - مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى ط ٤ دار العلم بيروت سنة ١٩٨٦ م .

مفهوم التحامق :

التحـامق مأخوذ مـن مادة « حمق » وتدور هـذه المادة حول معنـى القلة والـضعف والكساد والمصـدر منها يعنى - فى المفهـوم العام - قلة العقل وضعفـه ، ولذا يقول ابن الجوزى إن « الحمق فساد فى العقل أو فى الذهن » [١] بل إن « الحمق ضد العقل » [٢] كما نقرأ فى لسان العرب .

ومن مادة « حمـق » يؤخذ الفعل « اسـتحمق » وهو يعـنى أن شخصا يفـعل فعل الحمقى » [٣] ومنها تحامق « إذا تـكلف الحماقة » [٤] ومعنى هذا أن التـحامق هو ادعاء الحمق ، وأن الشخص المتحـامق هو من يقوم بأعمال الحمقى ، ويدعى أنـه قليل العقل كاسد الذهن فاسده وهو ليس كذلك فى الأصل .

ويعرف العقـاد التحامق بأنه حالة وسط « بـين الحكمة البينة والحماقـة البينة » [٥] وهى حالة يصطنع فيها إنسان عاقل الحماقة ويظهر التباله .

والتحامق فى الشعر فن ممتع ، ولون بـديع ، وفكاهة محببة ، ونوع من الإحماض جميل ، ولنا أن نستعير تعريف د. محمـد كامل حسين إذ يقول عنه إنه « شعر فكاهى خالص يتعمد فيه الشاعر إلى إضحاك النـاس ولكن الضحك يكون من الشاعر نفسه فى أغلب الأحيان » [٦] .

أوليات فن التحامق :

قد لا أكون مـجانبا الصواب إذا ذهـبت إلى القول بـأن بذور هذا الفن فى الـشعر العربى قد وجدت فى شعر الحطيئة ذلك الشاعر المخضرم الهجاء الساخر الذى لم يقصد

(١) ابن الجوزى - أخبار الحمقى والمغفلين - ص ٢٠ .

(٢) ابن منظور - لسان العرب : مادة (حمق) ط دار المعارف .

(٣) الفيروز ابادى - القاموس المحيط : مادة (حمق) ط مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨٧ م .

(٤) ابن منظور - لسان العرب - مادة (حمق) .

(٥) العقاد - جحا الضاحك المضحك - ص ١٢٤ .

(٦) د. محمـد كامـل حـسين - الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حـتى آخر الدولة الفاطمية ص ١٨٤ .

إلى التحامق قصدا ، وإنما غُلِّف هذا اللون عنده بصورة هجائية ساخرة حينما كان يصور خلقته السيئة ويهجو نفسه ويسخر من ذاته كما نرى فى قوله :

أرى لى وجها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله [١]

ولست هنا بصدد التأريخ لهذا الفن إنما يقابلنا بعد ذلك مجموعة من الشعراء على مدى العصور التالية تبالهوا وتحامقوا وألبسوا شعرهم شيئًا من ذلك اللون الفكاهى الظريف مثل أبى فرعون الساسى وأبى الشمقمق وأبى دلامة وأبى العبر وابن حجاج وابن سكرة [٢] .

وأما فى مصر فقد عرف هذا اللون ، فمصر معروفة منذ أقدم العصور بالفكاهة والظرف ، والمصريون معروفون بنوادرهم وطرائفهم بل إن « أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة » [٣] . فالفكاهة طبيعة متأصلة فيهم وغريزة مستكنة فى نفوسهم وهم يحبون الضحك ويغرمون بالفكاهة والنادرة والطرفة ، ومن ثم نشهد فى عصورها الإسلامية مجموعة من الشعراء تفاكهوا وتظرفوا مثل الجمل الأكبر وسيبويه المصرى ، وهذا الأخير كان يعد طرفة العصر الإخشيدى فلقد كان فكها ساخرا « يظهر التباله والحمق والجنون » [٤] .

ويأتى من بعد سيبويه المصرى أبو الرقعمق وابن مكنسة[٥] ويعد الأخير من أشهر شعراء الفكاهة والتحامق فى العصر الفاطمى .

وإذا جئنا إلى العصر المملوكى نجد هذا الفن قد اتسع وازدادت موجته حتى لكأننا أمام مسرح كبير من الضحك والفكاهة طوال هذا العصر يقوم فيه مجموعة من شعراء التحامق يصورون أنفسهم فى صور كاركاتورية ساخرة لم يشهد عصر من

(١) الحطيئة - ديوان الحطيئة ص ٢٨٢ تحقيق نعمان أمين طه ط عيسى البابى الحلبى .

(٢) هؤلاء الشعراء معروفون بالنسبة للمتخصصين ولست أرانى فى حاجة إلى التعريف بهم .

(٣) د. شوقى ضيف - عصر الدول والإمارات - مصر والشام - ص ٣٦٧ .

(٤) د. شوقى ضيف - الفكاهة فى مصر ص ٢٧ .

وقد كان لكاتب هذه السطور بحث بعنوان « سيبويه المصرى طرفة العصر الإخشيدى » .

(٥) ترجم العماد الأصفهانى لابن مكنسة فى كتابه خريدة القصر جـ ٢ ترجمة مفصلة وقدم نماذج كثيرة من شعره - (ص ٢٠٣ - ص ٢١٥) انظر الخريدة ، نشر أحمد أمين ، د. شوقى ضيف ، إحسان عباس ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١ .

قبل مثلهم عددا ولم يرتفع صوت التبالة والتحامق من قبل بمثل هذه الصورة اللافته للنظر .

وهنا يحق للباحث أن يفتش عن الأسباب التى أدت إلى ظهور هذا اللون من الشعر بمثل هذه الصورة البارزة وأن يتساءل عن موضوعاته وألوانه ، وكيف استطاع شعراؤه أن يوظفوا اللغة والأسلوب والصورة فى إظهار تحامقهم .

أسباب التحامق فى العصر المملوكى الأول :

يقابلنا فى ميدان التحامق فى ذلك العصر مجموعة من الشعراء على رأسهم : أبو الحسين الجزار والسراج الوراق وابن دانيال والحمامى وابن النقيب [١] .

وفى اعتقادى أن ثمة أسبابا وعوامل عامة أدت إلى وجود الفكاهة عند المصريين كالبيئة والتاريخ والطبع : فالبيئة المصرية بجمالها وصفائها لها أثر فى صفاء النفس وطلاقة الأسارير وسهولة الطبع ودفع الإنسان المصرى إلى روح الفكاهة والمرح [٢] والتاريخ المصرى الحافل بأطوار الحوادث ومفارقات الأيام وآلام الحياة له أثر فى دفع الإنسان المصرى إلى الترويح عن النفس والميل إلى التبسط والمزاح ، وكأنما هناك علاقة بين الضحك والألم [٣] كما يذهب إلى ذلك علماء النفس .

وأما الطبع فلقد عرف عن الإنسان المصرى بأنه مفطور على خفة الروح والظل وبراعة الحديث وحسن البشاشة والفطنة وسرعة البديهة ، وهى طباع متأصلة فيه تدفعه دائمًا إلى التفكه والمرح والنكتة [٤] ؛ ولذا فإن الفكاهة لتعد « مقوما هاما من مقومات

(١) لا أرانى فى حاجة إلى التعريف بهؤلاء الشعراء فهم معروفون بالنسبة للمتخصصين فى دراسة أدب مصر الإسلامية خاصة .

(٢) بسط هذا الأمر د. أحمد الحوفى فى كتابة الفكاهة فى الأدب العربى ط ٢ ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) د. زكريا إبراهيم - سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٦٩ - ط دار مصر للطباعة نشر مكتبة مصر سنة ١٩٨٨ م .

(٤) انظر د. شوقى ضيف فى كتابه الفكاهة فى مصر حيث يقول : « والمصريون من أكثر الأمم ميلا إلى الفكاهة » ص ١٦ .

وانظر د. الحوفى حيث يقول : « وليست اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال المستغربة فى أمة قديمة الحضارة - وأخلق بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعا فياضا » جـ ٢ ص ٩٧ .

الشخصية المصرية » [1] .

والعصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء كان لـه أثر فى ظهور هذا الفن ، فلقد اتخذ الشعراء التحـامق وسيلة من وسائل التعبـير عن سخطهم على بعـض الحكام والسلاطين الغاشمـين وطـريقة غيـر مباشـرة إلى نـقد هؤلاء الحكام والتنـديد بسياستـهم وسلاحا يقاومون به ظلم السلاطين ويحاربون به فسادهم ويلفتون نظرهم إلى بعض من سياستهم الجائرة .

ولعل وجـود أمثال هؤلاء الحـكام الأجانب الـذين لاينتـمون إلى الجنـس المصرى الخالص قد دفع بهذه الطائفة من الشعراء إلى التندر بهم والتفكه ، وإلى اتخاذ هذا اللون من الشعر أداة للتعبير عن آرائهم ، واستعلاء على ذلك الأجنبى ، واستخفافا به دون أن ينالهم من هؤلاء الحكام أدنى عقاب ، وتنفيسا عما يعانيه المصريون من عذاب وآلام .

ولقد اتسعت روح الفكاهة فى مصر فى ذلك الـعصر كما لم تتسع فى عصر سابق حيث « فرغت مصر أو كـادت من الحروب الصليبية وخلد المصـريون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب وتفجرت ينابيع الفكاهة فى أنفسهم » [2] .

ولايمكن أن يغفل أن العصر الذى عاشت فيه هـذه الطائفة من الشعراء قد اختلطت فيه القيم وتضاربت المفاهيم فكان هذا دافعًا إلى التحامق تعبيرًا عن تلك المتناقضات .

ولعل شعـراء التحامق قد لجئـوا إلى هذا اللون من الـشعر محاولة منـهم لإبراز ما أصاب المجتمـع من أمراض وأوبئة ومجـاعات وفقر ، وإشعارًا للـحكام بما يعانـيه أبناء الطبقة الدنيا فى المجتمع .

ولايبعد أن يكونوا قد لجئوا إليه أيضًا محاولة منهم للإصلاح الاجتماعى والأخلاقى بطريقة غير مباشرة حيث انتشرت الخمور وكثر المجون والفساد .

وبالإضافـة إلـى هـذه الأسباب العامة فإن ثمـة أسبابا خاصة تتـصل بهذه الطائفة من الشعراء فالمـلاحظ أن هذه الطائفة يجمعهـم الفقر والعوز ، وقد امتهن كـثير منهم

(١) د. محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبيين ص ١٦١ .

(٢) د. شوقى ضيف - الفكاهة فى مصر ص ٥٤ .

ولعل د. شوقى ضيف لايقصد بكلمة الرخاء « الرخـاء الاجتماعى والاقتصادى إنما يقصد الراحة التى أحس بها المصريون بعد جهد الحروب ومشقتها وإرهاقها لهم .

الحرف البسيطة التى لاتكاد تدر دخلا ؛ ولذا فليس من المستبعد أن يكونوا قد عبروا بشعرهم هذا تعاليا على ما أصيبوا به من عوز وشظف وسوء حال ، وتنفيسا عما يعانونه من ضيق وبؤس وربما استهزاء بما يقابلهم من غير الزمان وتقلبات الحياة .

ولعلهم استخدموه أيضًا نوعا من الشكوى غير المباشرة - من مرارة الأيام [1] ، ووسيلة للتعبير عن الضنك الذى يكابدونه واستدرارا للهبات والعطايا وجلبا للعطف عليهم وتكسبا به [2] .

ومما يضاف إلى تلك الأسباب والدوافع أن هؤلاء الشعراء ربما لجئوا إليه حماية لأنفسهم من تهكم الناس عليهم فهم يتندرون بأنفسهم ويتهكمون قبل أن يسخر الناس منهم وحتى يزيلوا بهذا اللون من الشعر ما يعانونه من قلق وحيرة فى حياتهم .

واعتقد أنهم لجئوا إليه أحيانا محاولة منهم لإثبات ذواتهم ووجودهم فى مجتمعهم الذى كان مضطرما بتيارات واتجاهات عديدة ومحاولة أيضًا للتوافق والتواؤم والتكيف مع هذا المجتمع [3] ولعلهم قد أصيبوا أحيانا بضيق وتبرم بحرفهم التى امتهنوها فلجئوا إلى

---

(١) يقول عبد الغنى العطرى فى كتابه « أدبنا الضاحك » إن « شكاوى الشعر فى عصر الانحاط كانت مزيجا من المرح والترح وخليطا من البسمات والدموع على أن طابع التهكم كان أكثر ظهورا ومن ثم كان الغالب على هذه الشكاوى والضحك ولكنه ضحك يحسن أن نطلق عليه الضحك المر » ص ٢٤١ .

(٢) ذكر الحسن النيسابورى فى كتابه عقلاء المجانين بعض الأسباب التى تدفع إلى التحامق حينما قسم المتحامقين إلى أنواع وأن منهم « من تحامق ليرخى وقتا ويطيب عيشا » ومنهم من « تحامق لينال غنى » ص ٧٤ ومنهم من « تحامق ليسنجو من بلاء وآفة » - عقلاء المجانين ط النجف سنة ١٩٦٨ م تقديم وتعليق محمد بحر العلوم .

(٣) اعتبر برجسون أن التكيف مع المجتمع عن طريق الضحك وظيفة هامة من وظائف الضحك - انظر برجسون « الضحك - بحث فى دلالة الضحك » .

تعريب : سامى الدروبى ، وعبدالله عبد الدايم ص ٢٥ - ٢٧ ط دار العلم للملايين ط ٣ ، سنة ١٩٨٣ م .

- ولأن التحامق لون من ألوان الضحك والفكاهة فليس من مجانبة الصواب أن نعتبره سببا من الأسباب التى لجأ إليها هؤلاء الشعراء ليتواءموا ويتكيفوا مع مجتمعهم .

هذا الضرب من الشعر ترويحا عن أنفسهم وتخفيفا مما يعانونه من متاعب هذه الحرف وتجديدا لنشاطهم وحفزا على مواصلة عملهم [1] .

وعلاوة على ذلك كله فإن هؤلاء المتحامقين كانوا معروفين بسرعة البديهة وخفة الروح والظل والذكاء وهذا من أهم العوامل التى ساعدتهم على التندر والفكاهة والتحامق .

ومهما يكن من أمر فإن كل هذه الأسباب : سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية وأخلاقية وبيئية وتاريخية ونفسية وظروف ذاتية وأحوال حياتيه خاصة بهؤلاء الشعراء - قد تعاونت جميعها على إبراز هذه الظاهرة فى ذلك العصر .

الوان وموضوعات التحامق :

جاء معظم شعر التحامق فى تلك الفترة مصبوبا فى قالب وصفى ، ولكن هذا القلب قد تعددت ألوانه واتجاهاته ، ومن هذه الألوان :

١ - وصف الدور :

قدم لنا شعراء التحامق وصفا لدورهم مملوءا بالتندر والتفكه ، فدورهم فقيرة بسيطة لاتكاد تتوافر فيها أسباب الحياة ، إنها دور قد تهدم بعض جدرانها وتصدع بعضها الآخر ، ومن ثم فقد عانوا معاناة شديدة منها خاصة فى وقت الشتاء ، وهذا ما نراه فى قول الوراق :

وبيتى فى الشتاء يكاد يبدو ... به جسدى لسكان الجحيم
تصدّ الشمس فيه عنا حتى ... كأنا فيه أصحاب الرقيم
ونفتح طاقنا لتزور حينا ... فيحجبها ويأذن للنسيم [2]

(١) يرى عبد الغنى العطرى كما يرى علماء النفس أن الضحك « وسيلة للتنفيس والتخفيف واسترداد النشاط والاقتدار على الحياة فى المجتمع » ، ص ١٥ .

(٢) الوراق - منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٨١ - مصور بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٣٧٥ .

فبيته متصدع متهدم لدرجة أن الناس يرونه حينما ينام فيه ونحس معه أن الشمس إذا طلعت تزاور عنه كأنه من أصحاب الكهف ، وليس لهذا البيت باب يصدُّ عنه ريح الشتاء العاتية بل له فى كل وجهة منافذ لاتقفل تسمح للرياح بالدخول والخروج كيفما تشاء كما يقول :

وعندى فى شتائى باب ريح ... يعاندنى معاندة الغريم
ينادى الشمس أنا واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم [1]

وأما منزل ابن دانيال فهو - بالإضافة إلى ذلك التصدع - منزل حقير صغير ضيق لايستطيع أن ينام فيه الشاعر ممددا ، وهذا شىء من التحامق واضح ، إذ ليس من المعقول أن يكون المنزل ضيقا إلى هذه الدرجة .

ويستمر فى وصف ذلك المنزل وما فيه ، وليس فيه - كما يقول - إلا رسوم حصيرة بالية ووسادة ممزقة وطراحة يلقى بنفسه عليها وهذه الطراحة مفعمة بالقمل الكثير الذى يشبه السمسم المتبدد ، وهناك الجرذان التى ذهبت تلعب فى هذا المنزل وتركض ركض الخيول ، وأما ثوبه فممزق بال مرقع متعدد الألوان كأنه ريش هدهد ، يقول ابن دانيال داره مقدما هذه اللوحة التحامقية عن داره :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى ... ما فى يدى من فاقة إلا يدى
فى منزل لم يحو غيرى قاعدا ... فإذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت لأم المهتدى
ملقى على طراحة فى حشوها ... قمل كمثل السمسم المتبدد
والفار يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجرد
هذا ولى ثوب تراه مرقعا ... من كل لون مثل ريش الهدهد [2]

ولم تكن بقية دور هؤلاء الشعراء بأحسن حالا من ذلك فبيت الجزار متشقق أيضًا لايكاد يستره ، متصدع لايكاد يحتمل صوتا حيث يخشى صاحبه أن يقيم فيه الصلاة

(١) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٨١ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٢ بدون تاريخ طبع .

فتقع حيطانه وتتهدم أركانه ويخشى أن يقرأ فى صلاته سورة الزلزلة فتهتز تلك الحيطان الآيلة للسقوط وتقع ، وقد عبر عن هذا السقوط بقوله « تقرأ الواقعة » ويمضى واصفا ذلك المنزل فى تحامق جميل ، إذ يحس وهو فيه كأنه على قارعة الطريق المطروق وذلك من كثرة تشققات الحوائط التى تهالكت يقول الجزار :

ودار خراب بها قد نزلت ... ولكن نزلت إلى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة ... محجتها للورى شاسعه
فلا فرق بين أنى أكون ... بها أو أكون على القارعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت « إذا زلزلت » ... خشيت بأن تقرأ « الواقعة »[1]

ولأن الشاعر لايحس بفرق واضح بين وجوده فى منزله أو وجوده خارجه ، فهو يرى أن الأرض كلها داره والفضاء كله سور لهذه الدار التى لاسقف لها إلا السماء .

وهذا هو عين الإحماض والتباله الذى يستدر به صاحبه عطف الناس ، يقول الجزار واصفا ذلك البيت :

بيتى الأرض والفضاء به سو ... ر مدار وسقف بيتى السماء [2]

وإذا كان ابن دانيال قد وجد فى داره رسوم حصيرة بالية وبقايا وسادة ممزقة وطراحة ينام عليها فإن الجزار لم يجد شيئًا من ذلك فتوسد شدقه بعد أن نفخه وافترش ظله وهذا غاية فى التحامق كما نرى فى قوله :

ولم ألق فى بيتى دثارا أعده ... لبرد ولا شيئًا يرد هجيرا
فانفخ شدقى إن أردت وسادة ... وأفرش ظلى إن أردت حصيرا[3]

(١) أبو الحسين الجزار - شعر أبى الحسين الجزار المصرى - ص ٢٧٠ .
رسالة دكتوراه مخطوطة بآداب قنا - للباحث أحمد عبد المجيد محمد إشراف د. البدراوى زهران سنة ١٩٩٦ م .
(٢) شعر الجزار ص ٤٦ .
(٣) شعر الجزار ص ١٥٢ .

وحينما يأتى الشتاء لايجد الجزار فراشا يستدفئ به إلا الزبل المتقد وإلا قدر هريس ينام فوقه مع مجموعة من الكلاب وهو يقاسى أثناء نومه وقع الندى فوق جسده وقد تراقصت - رغم ذلك الاستفداء أعضاؤه وصفقت من البرد أنيابه كما يقول :

أنام فى الزبل كى يدفا به جسدى ... ما بين جمر به ما بين أصحابى
أو فوق قدر هريس بت أحرسها ... مع الكلاب على دكان غلابى
ما كنت أعرف ما ضرب المقارع أو ... قاسيت وقع الندى من فوق أجنابى
وما تراقصت الأعضاء فى جسدى ... إلا وقد صفقت بالبرد أنيابى[1]

هذه بعض اللوحات التى قدمها لنا شعراء التحامق عن دورهم ، وهى لوحات تكاد تكون متقاربة متشابهة ونحن حين نقرؤها نحس أن أصحابها ربما بالغوا فى وصف دورهم ، لكن هذه اللوحات على أية حال تجعلنا نبتسم ونضحك من هؤلاء العقلاء الذين تبالهوا وأحمضوا حين شكوا دورهم لكنها كانت شكوى مملوءة بالفكاهة والمرح .

٢ - وصف الدواب :

وكما قدم هؤلاء الشعراء لوحات فكاهية عن دورهم فقد قدموا لنا أيضًا لوحات عن دوابهم وحيواناتهم متحامقين فيها متبالهين فابن دانيال حينما يركب حماره الذى أُعمى بالعرج يسير كالأسير وهذا الحمار ينكفئ فى مشيته كأنما ينحط من درج ، يقول :

قد كمل الله برذونى بمنقصة ... وشانه بعدما أعماه بالعرج
أسير مثل أسير وهو يعرج بى ... كأنه ماشيا ينحط من درج[2]

فالتفكه والتندر هنا واضح خاصة فى البيت الثانى ، ولم يكن حماره أعرج فحسب بل كان بطيئا « يحرن » دائمًا معه ، قصيرا إلى درجة أن رجلى ابن دانيال تلامسان الأرض حينما يمتطيه فهو الماشى الراكب أو الراكب الماشى كما يقول :

(١) شعر الجزار ص ١١٦ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩١ .

ولقد ركبت من الحمير مكمدا مكرا بطيا للحران مصاحبا
رجلاى فى جنبيه منذ ركبته لن يفترا فغدوت أمشى راكبا[1]

وأما الوراق فإنه يحس بغربة عجيبة حينما يركب حماره فالناس ينكرونه فلا هو ينتمى إلى الفروسية ولا حتى إلى الأصول العربية إذ يقول :

ومن رآنى والحمار مركبى وزرقتى للروم عرق قد ضرب
قال وقد أبصر وجهى مقبلا لا فارس الخيل ولا وجه العرب[2]

وفى مقطوعة أخرى يعطينا الوراق صورة لحمارته المرتعشه التى تنتفض فى مشيتها ، ويبدو أن انتفاضها كان قويا فكثيراً ما تهزه هزا عنيفا ينخلع له زند صاحبها إذ يقول :

ظل عيشى على الحما رة عيشا منغصا
مخضتنى فلو غدا فىَّ زند تخلصا[3]

وأما حمار الجزار فحمار غبى دائم العثار يلتهم الطعام الكثير ولايحس بالشبع وفى الوقت نفسه يعجز عن حمل أخف الأشياء فرغم التهامه من التبن قنطارا فإن الشعيرة تقصم ظهره وكأنه يحمل قنطارا ، يقول الجزار :

هذا حمارى فى الحمير حمار فى كل خطو كبوة وعثار
قنطار تبن فى حشاه شعيرة وشعيرة فى ظهره قنطار [4]

إنها صورة أدعى إلى الفكاهة والمرح بما فيها من مفارقة لطيفة بارعة تفنن الشاعر فى الربط بين جزئياتها :

ولابن النقيب مشاركة فى رسم جزء من هذه اللوحة « لوحة الدواب » حينما يصور بغلته الهزيلة النحيفة وقد ضعفت عن حمل حزامها وهى حينما تسير به كأنها رجله التى تحمله كما هو يحملها إذ يقول :

(١) مطالع البدور - الغزولى جـ ٢ ص ١٩١ .
(٢) منتخب شعر الوراق ورقة ٢٦٦ .
(٣) منتخب شعر الوراق ورقة ٣٢٦ .
(٤) مطالع البدور - جـ ٢ ص ١٨٤ وانظر شعر الجزار ص ٢٥٧ .

لـى بغـلة مـن ضعـفهـا حـزامـهـا يـشـقـلـهـا
كـأنـهـا رجـلـى كـمـا تحـملـنـى أحـمـلـهـا [1]

ورغم تلك الصور المضحكة التى قدمها لنا هؤلاء الشعراء فإن ثمة علاقة وثيقة قد ربطت بين هؤلاء الشعراء وبين دوابهم وحيواناتهم فمضوا يرثونها حينما تنفق أو يتألمون ألما شديدًا حينما تسرق ، وهذا ما نحسه فى قول الوراق وقد سرق خروفه إذ يقول :

ربـيـت كـبـشـا عـلـفـتـه سـنـه فـصـار فـيـلا لـعـظـم مـا تمـنـا
فـاخـتـلـسـوه لـيـلا فـوا كـبـدى لـم ألق إلا الـرسـيـس والرسـنـا
والخـفـراء الـذيـن كـم سـرقـوا قـطـايـعـا واقـتـنـوا لـهـا ثـمـنـا
قـالـوا مـن الحـائـط الـقـصـيـر فهـمت والحـائط الـقـصـيـر أنـا [2]

وأما الجزار فقد كان أكثر حرارة فى رثائه لحماره وأغزرا شعرا فقدم لنا فى ذلك مقطوعات كثيرة فيها صور من التحامق تدعو إلى التفكه والضحك وهو يربط فى بعضها بين حرفته ورثائه لحماره ، يقول فى إحدى هذه الصور :

مـا كـل حـين تـنـجـح الأسـفـار نـفـق الحـمـار وبـارت الأشـعـار
خرجـى علـى كتـفى وهـا أنا دائـر بـيـت الـبـيوت كـأنـنـى عـطـار
لـم أدر عـيـبـا فـيـه إلا أنـه مـع ذا الـذكاء يـقـال عـنه حـمـار
ولقـد تحامـته الـكلاب وأحـجمـت عـنـه وفـيـه كـلـهـا تحـتـار
راعت لـصاحـبه عهـودا قد مـضت لمـا عـلـمـن بـأنـه جـزار [3]

٣ - المهنة واللقب :

لم تسلم مـهن وحرف هؤلاء الشعراء وألقابـهم من تحامقهم ، بل إن بـعضهم قد أكثر من التندر بلقبه إكثارا مثل السراج الوراق الذى يعد متفوقا على زملائه المتحامقين فى

(١) مطالع البدور جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٤٠٧ .
(٣) مطالع البدور جـ ٢ ص ٢٠٧ وانظر شعر الجزار ص ٢٥٧ .

هذه الناحية وله فى ذلك مقطعات ونتف كثيرة يقول فى إحداها وهو يتلاعب بالألفاظ تلاعبا :

خرجت من بيتى سراجا ... وقد عدت من الأمطار قنديلا
فالحمد لله الذى شكره ... به لسانى قد عاد قنديلا [1]

ويقول فى بيتين آخرين مستغلا ذلك اللقب :

قالوا وقد ملنى فلان ... مالوا لود الملول رجعه
قطك عنه فقلت دعه ... كنت سراجا فصرت شمعه [2]

وله أيضًا فى التندر بلقبه قوله :

كم قطع الجود من لسان ... قلد من نظمه النحورا
فيها أنا شاعر سراج ... فاقطع لسانى أزدك نورا [3]

ولكثرة أشعار الوراق فى لقبه قيل له « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » [4] .

ولابن دانيال سهم أيضًا فى التلاعب بلقبه والتحامق به والتندر حيث يقول :

كم قيل لى إذ دعيت شمسا ... لابد للشمس من طلوع
فكان ذاك السطلوع داء ... يرقى إلى السطح من ضلوعى [5]

وأما أبو الحسين الجزار فإنه يقدم لنا مفارقة جميلة عقدها بين لقبه ومهنته من جانب وبين حالته التى يعيشها من جانب آخر فهو رغم كونه جزارا فإنه لايذوق للحم طعما بل

(١) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٠٧ .
(٢) الصفدى - الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم جـ ٢ ص ٢٥٣ ط أولى أزهرية سنة ١٣٠٥ هـ .
(٣) منتخب شعر الوراق ورقة ٣١٥ وانظر الشذرات جـ ٥ ص ٨٣ والغيث المنسجم جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٤) ابن حجة الحموى - خزانة الأدب - ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٥) ابن حجر العسقلانى - الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٥٦ - ط دار الكتب الحديثة القاهرة - وانظر الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ٥٧ ط الهاشمية دمشق سنة ١٩٥٣ .

لايعرف له رائحة وليس حظه من لقبه إلا الاسم فقط ولهذا فهو يعتاض عن الطعم بالشم كما يقول :

أصبحت لحاما ، وفى البيت لا ... أعرف ما رائحة اللحم
وليس حظى منه إلا اسمه ... قنعت من ذلك بالاسم
واعتضت من فقرى ومن فاقتى ... عن التذاذ الطعم بالشم
جهلته فقرا فكنت الذى ... أضله الله على علم [1]

وللجزار أيضًا مقطوعة أخرى يتحدث فيها عن عمله فى الجزارة طوال اليوم إلى صلاة العشاء ورغم ذلك لاينال منها طعام العشاء بل لاينال شيئًا سوى اتساخ الثوب وعذاب القلب والحرمان وقذارة الفم وكأنه فى الجزارة كلبه الذى يقتنيه ، يقول فى هذه المقطوعة :

حسبى حرافا بحرفتى حسبى ... أصبحت فيها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من ... طول اكتسابى ذنبا بلا ذنب
اعمل فى اللحم إلى العشاء ولا ... أنال منه العشا فما ذنبى
خلا فؤادى ولى فم وسخ ... كأننى فى الجزارة كلبى [2]

وممن تباله بمهنته نصير الدين الحمامى الذى كان يرتزق من عمله فى الحمامات إذ يقول :

ومذ لزمت الحمام صرت فى ... خلا يدارى من لايداريه
أعرف حر الأشياء وباردها ... وأخذ الماء من مجاريه [3]

والحق أن وراء هذه الأشعار نماذج أخرى ، وما قدمته إلا ضرب مثال يدل على إحماض هؤلاء الشعراء وتحامقهم وتندرهم بألقابهم ومهنهم .

(١) شعر الجزار ص ٦٠ .
(٢) شعر الجزار ص ٦١ .
(٣) الدرر الكامنة جـ ٥ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

٤ - وصف الطعام والملابس :

ومن الأمور التى وقف عندها هؤلاء الشعراء متحامقين فيها حديثهم عن طعامهم وملابسهم مستغلين فى ذلك حالة فقرهم وعوزهم التى جعلتهم لايذوقون إلا الطعام القليل ولايرتدون إلا الملابس البالية والأسمال الممزقة . وهذا هو الوراق قد أكثر الماء فى قدر الطبخ حتى يكفى الطعام عياله إلى درجة أن الطبيخ نفسه قد ضج من هذه الزيادة كما يقول :

وقدر طبخى لأجل العيا ... ل يخاف على السفن فيها الغرق
وكم مرة ضج منى الطبيـ ... ـخ بتلك الزيادة حتى مرق [1]

وفى مقطوعة أخرى يصور لنا الوراق أنه سكن الروضة ليلهى أهله عن الخبز برؤية الماء ويمنيهم حتى صار البيض كأنه دجاج بالنسبة لهم ويستمر أياما طوالا لايجد إلا الخبز فقط ، وفى المقطوعة نفسها يعقد حوارا ظريفا بين « طابونته ومطبخه » اللذين تخاصما وينتهى الأمر بأن تقسم تلك الطابونة أنه ما فيها رماد ولا فى المطبخ جمر ولا فحم مما يدلنا على قلة الطعام فى منزل الوراق بل ندرته ، يقول فى هذه المقطوعة اللطيفة :

سكنت بالروضة ألهى بها ... أهلى عن الخبز برؤيا الما
حتى غدا البيض دجاجى بها ... الفايق والحمص لى لجما
ثم توطنا على حالة ... لا يصحب الخبز بها الأدما
ولى بها طابونة خاصمت ... لى مطبخا فانتصفا شتما
قال لها فيك رماد فقا ... لت جزت يابا زدنى علما
تالله ما فىَّ رماد ولا ... فيك أرى جمرا ولا فحما [2]

ولم يكن الوراق فقط هو الذى تظرف وتحامق فى وصف طعامه فهناك الجزار الذى يتحسر على ضياع عمره فى أكل « المخلل » بعد أن ذاق مرة طعم الكنافة والقطائف ؛

(١) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٥١ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٧٤ .

ولذا يدعو بالويل والثبور على تلك الأوقات التى ضاعت مع « المخللات » ويدعو بدوام السقيا للكنافة بالقطر والسكر : يقول :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر ... وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبا لأوقات المخلل إنها ... تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
وأشتاق إن هبت نسيم قطايف السـ (م) ـسحور سحيرا وهى عاطرة النشر [1]

وكما تحامق هؤلاء الشعراء بالحديث عن طعامهم فقد تحامقوا أيضًا بالحديث عن ملابسهم فمضوا يصفوانها وصفا مملوءا بالفكاهة والتندر .

ولعل الجزار كان أبرع من تحامق فى هذا المجال وله فى ذلك العديد من القصائد المقطعات ومن أمتع هذه القصائد قصيدته التى يصف فيها جبته التى أخنى عليها الزمن ونالت من الغسل ما لايقل عن ألف غسلة وقد كان مضطرا إلى أن يغسلها كل يوم فهو لايمتلك سواها ولذلك نالت هذه الجبة كثيراً من الدق والعصر . ومن ثم فهى تشكو الهواء وتصيبها نزلات البرد وتعتل كما يقول :

لى نصفية تعد من العمـ ... ـر سنينا غسلتها ألف غسله
نشف الريح صدرها والأرازيـ ... ـب فباتت تشكو هواء ونزله
كل يوم يحوطها العصر والدق (م) مرارا وما تقر بعمله
فهى تعتل كلما غسلوها ... ويزيل النشاء تلك العله [2]

وهو كثيرا ما يتحدث عن قلة ملابسه خاصة فى وقت الشتاء ويشكو من ذلك متحامقا تحامقا جميلا حيث نراه يتقى الشتاء بجلده كما يتقى به الأمطار ولايجد له نعلا يلبسه إلا بغلته فهى « قبقابه » كما يقول :

أتلقى الشتاء بجلدى وغيرى ... يتلقاه بالفرا السنجاب
جبتى فى الأمطار جلدى ولبا ... دى ثوبى وبغلتى قبقابى [3]

(١) شعر الجزار ص ٨٣ .
(٢) شعر الجزار ص ٣٧ - ٣٨ .
(٣) شعر الجزار ص ١١٩ .

ويجمع فى قصيدة أخرى بين الحديث عن طعامه والحديث عن ملبسه وفيها نراه يتلقى الشتاء بجلده إذ لايمتلك ملبسا يؤويه البرد ومن ثم فهو مضطر إلى أن يبيت فى « قبة الفرن » أو فوق « قدرة الهراس » مستدفئا متقيا برد الشتاء وأما طعامه فلا يعدو أن يكون طعاما مسلوقا فى كل يوم ويالليته من اللحم بل كان دائما من القلقاس كما يقول :

أتلقى الشتاء بجلدى وغيرى ... يتلقاه بالفرا البرطاس
ومبيتى فى قبه الفرن طول الـ ... ـليل أو عند قدرة الهراس
وغذائى المسلوق فى كل يوم ... لا من اللحم بل من القلقاس [1]

٥ - وصف الخِلقة والخُلق :

تندر هؤلاء الشعراء أحيانا بخِلقتهم وتفكه بعضهم بأخلاقهم تارة أخرى وإن كنا نلاحظ أنهم أكثروا فى هذا المجال من الحديث عن أخلاقهم ومما يقابلنا من الأبيات القليلة التى تحدثوا فيها عن شكلهم بيتان للوراق يعقد فيهما مقارنه بين زرقة عينيه وزرقة عينى القط يقول : فيهما :

بينى وبين القط زرقة ناظر ... نفعت بما جلبت إلىَّ وجرت
صابت حروفك نظرة من عينه ... وعلى الحقيقة إنما هى نظرتى [2]

ومن الأبيات التى تواجهنا فى تندرهم بأخلاقهم وتحامقهم بها بيت لابن النقيب يصور فيه خوفه وجبنه وفيه تظهر التورية واضحة يقول فيه :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة ... دعونى فإنى آكل الخبز بالجبن [3]

وهناك قصيدة لابن دانيال غاية فى التحامق يشكو فيها زوجته إلى قاضى الفسوق الذى أنصف تلك الزوجة وجعلها تتمرد عليه فصار لايدرى ليله من نهاره ولا أين داره وقد سلبته عقله وجعلته كعقل الحمار يقول ابن دانيال :

(١) شعر الجزار ص ١١٨ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٢٦٧ .
(٣) خزانة الأدب ص ٣٠٨ .

قل لقاضى الفسوق والإدبار ... عضد البله عمدة الفجار
والذى غدا سفينة جهل ... وله من قرونه كالصوارى
بك أشكو من زوجة صيرتنى ... غائبا بين سائر الحضار
غيبتى عنى بما أطمعتنى ... فأنا الدهر منكر فى انتظار
غبت حتى لو أنهم صفعونى ... قلت كفوا بالله عن صفع جارى
فنهارى من البلادة ليل ... فى التساوى والليل مثل النهار
دار رأسى على باب دارى فبالله ... أخبرونى يا ساداتى أين دارى
ايـن مخ الجمال من طبخ مخى ... فى التساوى وأين مخ الحمار [1]

لقد غاب ابن دانيال عن عقله وصار بليدا لايدرى أين داره وإن صفع ظن أن المصفوع جاره ، ويمضى بعد ذلك واصفا تلك البلادة التى جعلته يسبح فى السراب لظنه أنه الزلال .

لقد انقلبت الأحوال وتبلبل البال فكان إذا رأى صورته فى الماء اعتقد أنها صورة شيخ سئ الخلقة يشبه التيس شكلا ، وقد اعتراه الخوف فكان يظن أنه يرى فى الزير لصا فيبحث عن ترسه ودرعه وسيفه ويستعد لهذا اللص ويشمر عن ساعده مبديا شجاعته واستعداده لأن يموت شهيداً وكان نتيجة لهذا الظن أن كسر زيره فجرى الماء منه ونظر الشاعر فلم ير لصا فانتابه الحياء .

ومضى بعد ذلك يصف نفسه بأنه مثل الخروف ويعتقد أنه فى غاية الذكاء إذ يعرف تمامًا أن الباب من صنعة النجار وأن بياض البيض فوق الصفار وأن كوز النحاس أقوى من الفخار ويمضى على هذه الشاكلة متحامقا تحامقا جميلا حتى إنه يرى فى نهاية الأمر أن هذا شىء كثير عليه أن يحفظه وقد شاب رأسه وكبر سنه ، يقول ابن دانيال معبرا عن تلك المعانى :

وتجردت للسياحة فى الآ ... ل لظنى به الزلال الجارى
ولكم رأيت فى الماء شيخا ... وهو جاث فى الجب كالعيار
شيخ سوء كالثلج ذقنا ولكن ... وجهه فى سواده كالقار

(٦١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٤ .

أشبه الناس بى وقد يشبه التيـ ـس أخاه فى حومة الجزار
فاعترانى رعب وناديت ما كنـ ـت أخال اللصوص فى الأزيار
أين ترسى وأين درعى الحقينى أم عمر بصارمى البتار
إن أمت كنت فى الغزاة شهيدا أو أعش كنت شاطر الشطار
ثم أثخنت ذلك الزير ضربا بحسامى حتى هوى لانكسار
وجرى الماء فاختشيت والا كدت أقفو الاثار فى التيار
أنا كالخروف قرنا وإن أسـ ـطت فإنى أعد فى الأقذار
بعدما كنت من ذكائى أدرى أن بابى من صنعة النجار
أحرز البيض قبل ما يكسروه أن فيه البياض قبل الصفار
وبعين نظرت كوز نحاس كان عندى أقوى من الفخار
وكثير منى على شيب رأسى حفظ هذه الأشياء مثل الكبار [1]

٦ - مسخ القصائد:

لجأ بعض هؤلاء الشعراء فى بعض الأحيان إلى لون آخر من ألوان التحامق وهو مسخ بعض القصائد العربية القديمة وتصحيفها ومناقضتها ومعارضتها وتغيير ألفاظها « حتى تظهر هذه القصيدة القديمة فى مظهر جديد فكاهى » [2] وفيها عمد هؤلاء الشعراء إلى الاضحاك « من أنفسهم تارة ومن أهلهم تارة ودورهم تارة أخرى » [3] ومن أمثلة ذلك قصيدة الجزار التى يعارض بها معلقة امرئ القيس والتى يقول فيها :

قفا نبك من ذكرى قميص وسروال ودراعة لى قد عفا رسمها البالى
وما أنا من يبكى لأسماء إن نأت ولكننى أبكى على فقد أسمالى
ولى من هوى سكنى القياسر عن هوى بتوضح فالمقراة أعظم أشغالى
ترى هل ترانى الناس فى فرجية أجرُّ بها تيها على الأرض أذيالى
ولو أنى أسعى لتفصيل جبة كفانى ولم أطلب قليلا من المال

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ .
(٢) الحياة الفكرية والأدبية - محمد كامل حسين ص ١٨٤ .
(٣) الأدب العامى فى مصر ص ١٩٥ .

ولـكنـنـى أسعـى لمجـد بـجوخـة وقد يـدرك المجد المـؤثل أمـثالـى[1]

فهو لايـبكى من ذكرى حـبيب ومنزل بسقط اللـوى إنما يبكى عـلى فقد قمـيصه وسرواله ودراعته التى عفا عليها الزمن وصارت بـاليه خلقة ويتمنى أن لو يراه الناس فى جبة مرة ومن يدرى فلربما يدرك هذا المجد العظيم يوما .

ومن القصائد التى تقابلنا فى هذا اللـون من التحامق قصيدة ابن دانيال التى يعارض بها معلقة طرفة والتى يقول فيها :

أمسـيت أفـقر من يـروح ويغـتدى مـا فـى يـدى مـن فـاقـة الإيـدى
فـى منـزل لم يـحـو غيـرى قاعـدا فـإذا رقـدت رقـدت غـيـر ممـدد [2]

لقد استـطاع ابن دانيال أن يرسـم لنا صورة ضاحكـة لبيته الصـغير المملوء بـالبق والقمـل والصراصير والـفأر والخنافس والـزنابير ، وقـد المحت إلى شىء من هـذا عند الحديث عن « وصف الدور » .

وعلى أية حال فإن مسـخ أمثال هذه القصائد القديمة تدلنا عـلى قدرة هؤلاء الشعراء على التلاعب بالألفاظ وتـصوير حالتهم وقدرتهم على إضحاكنا وإعـطائنا صورة لمجتمع الفقراء فى ذلك العصر .

ظواهر لغوية وأسلوبية وفنية :

هناك عدة ظواهر لغوية وأسلوبية وفنية تـلفت النظر فى هذا الشعر - قيد البحث - منها :

١ - التورية :

حشد شـعراء التحامـق كثيراً من التـوريات فى شعرهـم ، فهى نوع من الـتلاعب بالألفاظ ساعدهـم علـى تحامقهم كثـيراً ونفذوا مـن خلالها إلى مـا يريدون ، وعمدوا

(١) شعر الجزار ص ١٨٨ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩١ .

إليها ؛ لأنها أعانتهم كثيرًا على تقديم صور من الإضحاك والإحماض ، ومن هذه التوريات اللطيفة قول الوراق :

كم قطع الجود من لسان ... قلد من نظمه النحورا
فها أنا شاعر سراج ... فاقطع لسانى أزدك نورا [1]

فهو يقصد من وراء قوله : « فاقطع لسانى» العطاء الذى يجعله يكثر من المدح ، ومن التورية أيضًا قوله :

فقالت قد صدقت وما علمنا ... بأضيع من سراج فى نهار [2]

ومن توريات ابن دانيال الكحال وقد استغل حرفته قوله :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى ... وضيعتى فيهم وإفلاس
ما حال من درهم إنفاقه ... يأخذه من أعين الناس [3]

والتورية هنا واضحة فى قوله « يأخذه من أعين الناس » فهو لايقصد حرفته إنما يريد أن يأخذ أجره رغم أنوفهم .

ومن توريات الجزار وكان قد صلى التراويح ليلة وراء إمام قرأ فى رقعة واحدة سورة الأنعام قوله :

مالى على الأنعام من قدرة ... لاسيما فى ركعة واحدة
فلا تسومونى حضورا سوى ... فى ليلة الأنفال والمائدة [4]

وهو يقصد بالأنفال المنح والعطايا لاسورة الأنفال وبالمائدة « مائدة اطعام » لاسورة المائدة .

وله فى وصف داره تورية لطيفة تظهر فى قوله :

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٠٢ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٠٦ .
(٣) الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ٥٣ وانظر النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢١٥ .
(٤) شعر الجزار ص ٢٥٤ .

وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة [1]

والحق أن هؤلاء الشعراء قد أكثروا من التورية بصورة لافته للنظر وكان السراج الوراق أكثرهم استخداما لها وقد خطا بهذا الفن « خطوة أوسع من صديقه الجزار مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه السراج كما استغل الجزار لقبه فى كثير من تورياته ، ومن المؤكد أن السراج قد أربى عليه فى هذا الباب » [2] فهو الذى جلا غياهبها بنور مشكاته كما يقول ابن حجة الحموى .

٢ - الجناس :

ومن ألوان البديع التى استخدمها هؤلاء الشعراء الجناس ولعلهم لجئوا إليه ليعينهم على التأثير فى النفس ولإحداث متعة عند سامعيهم ، وهناك عدد لاحصر له فى شعرهم ومثال ذلك قول الجزار :

ودكانى جهنم إذ **زبونى** **زبانية** بهم تعذيب سرى [3]

وقول ابن دانيال :

أسير مثل **أسير** وهو يعرج بى وشأنه بعدما أعماه بالعرج [4]

وإذا كان الوراق قد أكثر من استخدام التورية وتفوق على الجزار فإن الجزار كان أكثر تفوقا واستخداما لفن الجناس من الوراق .

٣ - الطباق :

وهو لون ثالث من ألوان البديع ظاهر فى شعر هؤلاء المتحامقين وهذا اللون ساعدهم على عقد المقارنات وتقديم المفارقات المضحكة ومن ذلك قول ابن دانيال فى وصف حماره :

(١) شعر الجزار ص ٢٧٠ .
(٢) عصر الدول والإمارات ص ٣٧٩ .
(٣) شعر الجزار ص ٥٨ .
(٤) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩١ .

رجـلاى فى جـنـبيـه منـذ ركـبتـه لن يفتـرا فغدوت **أمشى راكبا** [١]

وقول الوراق وقد أخذ يلطم خده الذى تجمع عليه الناموس :

وجعـلت ألـطم وجـنتـى فذاك فـى **عرس** لـه وأنـا بـه فـى **مأتم** [٢]

وقول الوراق أيضًا :

الحـمـد لله زادنـى شـرفـا **كنت** سراجـا **فصرت** فانـوسا [٣]

وقول ابن دانيال :

أصبحت أفـقر من **يروح ويغتدى** مـا فى يـدى من فـاقة إلا يـدى [٤]

٤ - الاقتباس والتضمين :

وهو نوع من البديع جاء فى شعرهم يدلنا على مدى ثقافتهم وإطلاعهم على التراث ويكشف عن مهارتـهم الأدبية وبراعتهم فى توظيف هذا التـراث والتأثر به ، ومن ذلك قول الجزار :

وكـل يوم بـبـيع الـلـحـم عنـدى يـعد مـن الـبوار بـألـف شهـر [٥]

فهو هنـا يضمن بيتـه بعضا مما جاء فى سـورة القدر مع الفارق الـواضح بين الآية الكريمة ﴿ ليلة القـدر خير من ألف شهر ﴾ [٦] وبين يومه فى بيع الـلحم الذى يعده من البوار بألف شهر .

ومن الاقتباس قول الجزار أيضًا :

واعتـضت مـن فقـرى ومن فـاقتـى عـن الـتـذاذ الـطـعـم بـالـشـم
جـهـلـتـه فـقـرا فـكـنـت الـذى أضـلـلـه الله عـلـى عـلـم [٧]

(١) مطالع البدور - الغزولى جـ ٢ ص ١٩١ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٨٨ .
(٣) الغيث المنسجم جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٤) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩١ .
(٥) شعر الجزار ص ٥٨ .
(٦) القرآن الكريم - سورة القدر آية ٣ .
(٧) شعر الجزار ص ٦٠ .

ففى البيت الثانى اقتباس من سورة الجاثية حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرءيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم ﴾ [1] وهناك شواهد عديدة فى شعر هؤلاء المتحامقين تدلنا على ذلك الاقتباس والتضمين ، ولكتفيت بذلك ضرب مثال .

وهذا الاقتباس والتضمين يدعونا إلى الإشارة إلى ظاهرة أخرى فى شعرهم متصلة بهذا اللون وهى :

٥ - التأثر بالتراث :

والحق أن من ينظر فى شعر التحامق فى تلك الفترة سيجد أمامه كما هائلا من الشواهد التى تدل على أن هؤلاء الشعراء قد اطلعوا على ألوان متعددة من التراث الدينى والأدبى واللغوى والتاريخى وتأثروا به كما تدل على سعة ثقافة هؤلاء الشعراء وسأكتفى هنا بإشارات قليلة دالة على هذا الاطلاع ومن ذلك قول الوراق وهو يصف داره :

تصدُّ الشمس فيه عنا حتى ... كأنا فيه أصحاب الرقيم [2]

وفى هذا البيت تأثر واضح بما جاء فى القرآن الكريم فى سورة الكهف فى قوله تعالى :

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آيتنا عجبا ﴾ [3] .

ومما جاء فى شعر الجزار دالا على تأثره بالموروث الدينى قوله عن داره :

وأخشى بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الراكعة
إذا قرأت « إذا زلزلت » ... خشيت بأن تقرأ الواقعة [4]

ومما يدلنا على تأثرهم بالموروث الأدبى تلك المناقضات التى أوردت شيئًا منها عند الحديث عن « مسخ القصائد » ومما يدلنا على تأثرهم بالموروث الأدبى قول الجزار عن مهنته :

---

(١) القرآن الكريم - سورة الجاثية آية ٢٣ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٨١ .
(٣) القرآن الكريم - سورة الكهف آية ٩ .
(٤) شعر الجزار ص ٢٧٠ .

فاللحم والعظم والسكين تعرفنى والخلع والقطع والساطور والعظم [١]

فوراء هذا البيت بيت المتنبى الذى يقول فيه :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والضرب والطعن والقرطاس والقلم [٢]

ومن دلائل تأثرهم بالموروث الأدبى قول الجزار فى الكنافة متحامقا :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر وجاد عليها سكر دائم الدر [٣]

وهو بيت من مقطوعة تذكرنا « بأبيات ابن الرومى فى القطايف والزلابية » [٤] وثمة أسماء كثيرة لشعراء قدماء قد وردت فى شعرهم مثل امرئ القيس وطرفة ولبيد وأبى تمام وأبى العلاء المعرى مما يدلنا دلالة قاطعة على اطلاعهم على هذا الموروث الأدبى والتأثر به .

وبالنسبة للموروث التاريخى فى شعرهم فإننا نلاحظه فى ورود أسماء خلفاء وأمراء وحكام ومواقع وأحداث عربية وإسلامية كثيرة .

وأما التراث اللغوى فمبثوث فى شعرهم ومن ذلك قول الجزار :

قرأت النحو تبيانا وفهما إلى أن كعت منه وضاق صدرى
فما استبطنت منه سوى محال يحال به على زيد وعمرو
فكان النصب فيه على نصبا وكان الرفع فيه لغير قدرى
وكان الخفض فيه محل حظى وكان الجزم منه لقطع ذكرى
وفى علم العروض دخلت جهلا وعمت لخفتى فى كل بحر
فأذكرنى به التفعيل بيتا تضمن نصفه الشيخ المعرى
كلاما ما قرأت له صحاحا ولا نحوا على الشيخ ابن برى

(١) شعر الجزار ص ٢٨٤ .

(٢) المتنبى - ديوان المتنبى جـ ٣ ص ٣٦٩ - شرح العكبرى ضبط وتصحيح مصطفى السقا وزميليه ط دار الفكر .

(٣) شعر الجزار ص ٨٣ .

(٤) د. محمد زغلول سلام - الأدب فى العصر المملوكى جـ ٢ ص ١٤٢ .

وقد شاركت فى لغة ونحو ... بلا علم وشاع بذاك ذكرى
وعيشك لست أدرى ما طحاها ... وقد أقررت أنى لست أدرى
كأنى مثل بعض الناس لما ... تعلم آيتين فصار يقرى [1]

والحق أن تحامق الجزار واضح فى هذه الأبيات فشعره يدل على مدى ثقافته واطلاعه على علوم اللغة والتأثر بها وليس معنى ورود هذه الأبيات فى شعره أن صاحبها بدون ثقافة لغوية إنما هذا من باب الفكاهة والتحامق .

وفى أشعار هؤلاء المتحامقين إشارات أخرى دالة على اطلاعهم وتأثرهم بالتراث اللغوى والأدبى والتاريخى والدينى يضيق المقام بذكرها .

٦ - المعانى والألفاظ والأساليب :

جاءت المعانى التى عبر عنها هؤلاء الشعراء فى تحامقهم سهلة بسيطة واضحة لاغموض فيها ولاتعقيد ، ولعل الموضوع نفسه قد فرض عليهم الاتيان بهذه المعانى الواضحة حتى يتمكنوا من تفجير طاقة من الضحك والإضحاك لاتحتاج إلى كثير من التفكير ، ولعل البيئة الشعبية البسيطة التى نشأوا فيها كانت تقف وراء هذه البساطة .

وأما الألفاظ والأساليب فقد غلب عليها الوضوح والسهولة ، وكأنما قد راعى هؤلاء الشعراء هذا الأمر حتى يصل المعنى بسهولة إلى هذه البيئة الشعبية ، ومن ثم نلاحظ أنهم قد خرجوا عن الفصحى أحيانا فاستخدموا ألفاظا عامية وذلك مثل قول ابن دانيال :

وجرى الماء فاختشيت وإلا ... كدت أقفو الآثار فى التيار
أحرز البيض قبل ما يكسروه ... أن فيه البياض قبل الصفار [2]

فكلمة « أختشيت » كلمة عامية وقوله « قبل ما » أسلوب عامى ، ومن تلك الألفاظ العامية قول الجزار وهو يصف جبته :

---

(١) شعر الجزار ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٤ .

قال لـى الناس حـين أطنـبت فيـها بس أكـثرت خـلهـا فهـى بقـلة [١]

وكما استـخدموا ألفاظا وأسالـيب عامية فى بعض الأحـيان فقد استخدمـوا ألفاظا دخيلة فى أحـيان أخرى ، ولعل انفتاح مصـر على كثير من الأمم فى تلـك الفترة وما قبلها ودخـول أجناس غير عربية أدى إلـى وجود أمثال هذه الألفاظ الدخـيلة ومن ذلك قول الجزار :

ونـهـار الـشـتـاء أطـول عـنـدى من نـهار الصـيام فى شـهر آب [٢]

فكلمة « آب » غير عربية وكذلك كلمة الكنافة التى وردت فى شعره أكثر من مرة .

ومن الظـواهر الأسلوبـية واللغـوية استخدام ألـوان من البديـع كالتوريـة والجناس والطباق وقد أشرت إلى ذلك من قبل .

ومن تلك الظواهر استخدام أساليب الاستفـهام والشرط والنداء وضمائر المتكلم ومما يدلنا على ذلك قول ابن دانيال :

يا سـائلى عـن صنـعتى فـى الورى وضـيـعتـى فـيـهم وإفـلاسـى [٣]

وقول الوراق :

ومـاذا أقـول لأهـل الـعـقـو ل إذا مـا زرعـت أوان الحـصـاد [٤]

ولعل فـيما ورد من أمثـلة عند الحديث عـن ألوان التحامـق خير شاهد عـلى هذه الأساليب .

وثمة ملـحوظة أخرى فى أسالـيب ولغة هؤلاء الشـعراء وهى سقوط بعـضهم فى أخطاء نحوية ولغوية أحـيانا ولعل انتماءهم إلى الأوساط الشعبية وبساطـتهم فى التعبير أدى إلى مثل هذه الأخطاء ومن ذلك قول الوراق :

عـمـامـتـه تـشـكـى وقـ ـع نـعـلـيـه بما يـجـنـى [٥]

(١) شعر الجزار ص ٣٨ .
(٢) شعر الجزار ص ١١٩ .
(٣) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٥٥ .
(٤) منتخب شعر الوراق - ورقة ٢٨٥ .
(٥) منتخب شعر الوراق - ورقة ٤٠٦ .

والصواب « تشكو »

ومن ذلك أيضًا قول ابن دانيال :

أسير مثل أسير وهو يعرج بى كأنه ماشيا ينحط من درج [1]

والصواب « كأنه ماش »

٧ - الصورة :

استخدم هؤلاء الشعراء الصورة الشعرية كثيرًا فى تحامقهم فلقد أعانتهم على ذلك وكانت أداة أساسية ارتكزوا عليها فى نقل مناظر التباله ، وقد جاءت هذه الصور فى أغلبها واضحة مفهومة مضحكة - مستمدة من بيئتهم التى نشأوا فيها وتتمثل هذه الصور الشعرية فيما يلى :

١ - التشبيه :

كثر التشبيه فى شعر التحامق ، ولعل كثرته تعود إلى أنه صورة سهلة الاستخدام تقرب « اللقطة الضاحكة » سريعا وتبرز الفكرة بدون التواء وتحقق ما يصبو إليه شاعر التحامق بلا جهد كثير وتعينه على مخاطبة البيئة البسيطة التى لاتحتاج إلى إعمال فكر أو كد ذهن .

ومن التشبيهات الجميلة المضحكة قول ابن دانيال :

أنا سطل الشرائحى بما أو دعت من عجة ومن أبزارى
شيخ سوء كالثلج ذقنا ولكن وجهه فى سواده كالقار
أنا كالبان فى قوامى وان أفـ ـردتنى كنت فى التهاوش ضارى
أنا كالخروف قرنا وإن أسـ ـقطت فإنى أعد فى الأقذار [2]

ومن تشبيهاته قوله :

(١) مطالع البدور جـ٢ ص ١٩٢ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٤ .

ملقى على طراحة فى حشوها قمل كمثل السمسم المتبدد
والفار يركض كالخيول تسابقت من كل جرداء الأديم وأجرد [1]

ومن تشبيهات الوراق قوله :

تصد الشمس فيه عنا حتى كأنا فيه أصحاب الرقيم [2]

ومن تشبيهات ابن النقيب قوله :

لى بغلة من ضعفها حزامها يثقلها
كأنها رجلى كما تحملنى أحملها [3]

وللجزار سهم كبير فى هذا المجال وله فيه تشبيهات بارعة منها قوله :

خرجى على كتفى وها أنا دائر بين البيوت كأننى عطار [4]

والملاحظ أن هؤلاء الشعراء قد أكثروا من التشبيه المجمل ثم المفصل ثم التشبيه البليغ كما كثر عندهم استخدام التشبيه الحسى من ناحية أخرى ، ومن حيث نوع الأداة فلقد جاء الحرف « كأن » أكثر ورودا ثم تلاه « الكاف » ثم « مثل » .

ب - الاستعارة :

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد استعانوا بالتشبيه فى تقديم صور مضحكة فإنهم استعانوا أيضًا بالاستعارة لتشخيص وتجسيم وتشكيل صور أخرى أكثر روعة وجمالا وتأثيرا ، ولعل من أجمل الصور الاستعارية تلك التى قدمها لنا الجزار عن الكنافة والقطايف وقد صورهما فى صورة محبوبتين إحداهما قديمة وهى الكنافة والأخرى جديدة وهى القطايف ، وفى المقطوعة نرى إعراض الكنافة بوجهها عن الشاعر ؛ لأنه تحول عنها إلى القطايف ولكن الشاعر لعشقه القديم لها أخذ يسترضيها وما زالت تصد عنه

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩١ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٨١ .
(٣) مطالع البدور جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٤) شعر الجزار ص ٢٥٧ .

بوجهها المحمر وهو يستمر فى استرضائها وتقديم البراهين لها على أنه ما زال يعشقها وما خانها أبدًا وهيهات للقطايف أن تنسيه حبه الدفين ويهيب الشاعر بالبعض أن يتدخلوا لإصلاح ما فسد من العلاقة بينه وبين محبوبته الأولى فهو لايشتهى سواها ولايحب إلاها . يقول مجسدًا ومجسما هذه الصورة الجميلة .

إلام أرى وجه الكنافة مغضبا ... ولولا رضاها لم أرد رمضانها
عجبت لها مع رقة كيف أظهرت ... علىَّ جفاء صد عنى جفانها
ترى أتهمتنى بالقطايف فاغتدت ... تصد اعتقادا أن قلبى خانها
ألا خبروها أننى وحياتها ... ومن صانها فى كل صدر وزانها
ليقبح بى أن أجعل الحشو مذهبى ... فأفسد شأنى حين أصلح شانها
ومذ قاطعتنى ما سمعت كلامها ... لأن لسان لم يخالط لسانها [1]

ومن الصور الاستعارية الجميلة تلك التى قدمها لنا الوراق عن طابونته التى تخاصمت مع مطبخه فانتصفا شتما وينتهى الأمر بينهما إلى إقرار حقيقة واقعة هى أن ما فى المطبخ رماد ولا فى الطابونة جمر أو فحم ويتمنيان لو أن السراج (مع ملاحظة التورية اللطيفة) يشتعل ويحمى ، يقول الوراق :

ولى بها طابونة خاصمت ... لى مطبخا فانتصفا شتما
قال لها فيك رماد فقا ... لت جزت يابا زدنى علما
تالله ما فىَّ رماد ولا ... فيك أرى جمرا ولا فحما
ليت سراجا نحن فى بيـ ... ـته نبغشه ويلك لو يحمى [2]

هذان مشهدان من مشاهد التحامق تكاثفت فيهما الصور الاستعارية تكاثفا ، وثمة صور استعارية أخرى فى أبيات مستقلة تقدم لنا جانبا من جوانب تلك اللوحة التحامقية التى رسمها هؤلاء الشعراء ، وذلك مثلما نقرأ فى قول الوراق عن باب داره :

(١) شعر الجزار ص ١٤٢ .
(٢) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٧٤ .

ينادى الشمس أنا واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم [1]

ومثلما نقرأ فى قول الجزار عن جبته :

نشف الريح صدرها والأرازب فباتت تشكو هواء ونزله [2]

والملاحظ أن الاستعارة المكنية كانت أكثر ورودا من الاستعارة التصريحية فى شعر هؤلاء الشعراء ، ولعلهم قد أحسوا أنها تعينهم أكثر على تشخيص المشهد التحامقى الذى يريدون تقديمه .

جـ - الكناية :

ورغم كثرة التشبيهات والاستعارات فإنا لانعدم وجود كنايات فى هذا اللون من الشعر ، ومعظم هذه الكنايات كانت كنايات عن « صفة » وقد استعان بها هؤلاء الشعراء فى وصف دورهم الضيقة مرة ، وعبروا بها عن قلة طعامهم مرة أخرى أو عن غباء دوابهم مرة ثالثة أو وصفوا بها أسمالهم البالية مرة رابعة .

وبالجملة فإن الكناية « عن صفة » قد أعانتهم على وصف فقرهم وعوزهم وشظف حياتهم ، ومن هذه الكنايات قول ابن دانيال فى مشهد يقدمه عن داره الضيقه حتى ما يستطيع أن ينام فيها ممددا :

فى منزل لم يحو غيرى قاعدا فإذا رقدت رقدت غير ممدد [3]

ومن الكنايات أيضًا قول الجزار فى وصف حماره :

قنطار تبن فى حشاه شعيرة وشعيرة فى ظهره قنطار [4]

فهو يكنى هنا عن ضعف هذا الحمار رغم كثرة ما يلتهمه من طعام . وهناك كنايات أخرى لكنها على أية حال لاتصل عددا من الناحية الإحصائية إلى ما وصلت إليه التشبيهات والاستعارات .

---

(١) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٨١ .

(٢) شعر الجزار ص ٣٧ .

(٣) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩١ .

(٤) شعر الجزار ص ٢٥٧ .

٨ - الموسيقا:

استطاع هؤلاء الشعراء أن يستخدموا الموسيقا أداة بارعة فى تقديم لقطات تحامقية مؤثرة فى النفس وقد تمثلت تلك الموسيقا عندهم فى الوزن والقافية والتصريع والجناس .

أما الوزن : فقد استخدموا - فى الأغلب - بحورا قليلة التفعيلات مثل الكامل والوافر والخفيف حتى تعينهم على تقديم المشهد المضحك سريعا ويمكن أن نستدل على استخدامهم تلك البحور بقول الجزار (من مجزوء الكامل) :

تـــالله مـــا لـــثـــم المـــراشـــف كـــلا ولا ضـــم المـــعـــاطـــف
بـــألـــذ وقـــعـــا فـــى حـــشـــا ى مـــن الـــكـنـافـة والـقـطـايـف [١]

ونستدل أيضًا بقول ابن دانيال : (من الخفيف)

أنـا كـــالـخـروف قـرنـــا وإن أســـ ـقـطت فـإنى أعـد فى الأقـذار [٢]

ونستدل بقول الوراق (من الوافر)

فـقالـت وقد صـدقت ومـا علـمنـا بـأضيـع مـن سـراج فى نـهـار [٣]

وليس معنى ذلك أنهم لم يستخدموا بحورا كثيرة التفعيلات بل لقد نظموا فى بعضها ولكنهم لجئوا إليها حينما كانوا يمسخون بعض القصائد أحيانا أو يضطرون إلى تقديم مشهد ذى جوانب ممتدة .

وأما القافية : فلقد لازمت الوزن فى إحداث النغمة الموسيقية ولم تفلت قصائد هؤلاء الشعراء ولامقطعاتهم ولانتفهم من القوافى الموحدة .

وأما التصريع : فقد استخدموه فى قصائدهم واستغنوا عنه كثيرا فى مقطعاتهم.

ومن ألوان الموسيقا التى استخدموها الجناس ، وقد أشرت إلى شىء منه عند الحديث عن البديع .

---

(١) شعر الجزار ص ٨١ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٤.

(٣) منتخب شعر الوراق - ورقة ٣٠٦ .

٩ - البناء الفنى :

جاء معظم شعر التحامق فى صور مقطعات ونتف ولعل ذلك راجع إلى كثرة المواقف التى تعرض لها هؤلاء الشعراء والمطلوب من الشاعر المتظرف أن يكون حاضر البديهة سريع النكتة يلتقط المنظر ويعبر عنه سريعا فى أبيات قليلة تضحك الجمهور وتمتعه ، وهنا تكون المقطعات والنتف أكثر إسعافا لهذا الشاعر وأسرع تصويرا لما يدور فى نفسه .

والقليل من هذا الشعر جاء فى صورة قصائد وهذه القصائد جاءت خالية من المقدمات التقليدية فما احتاج الشعراء إلى حسن تخلص أو خاتمة ، ولعل من أمتع هذه القصائد قصيدة ابن دانيال التى جعلها خالصة فى التحامق وهى تصل إلى ثلاثين بيتا يبدؤها بقوله :

قل لقاضى الفسوق والإدبار عضد البله عمدة الفجار [١]

ويختمها بقوله :

وكثير منى على شيب رأسى حفظ هذه الأشياء مثل الكبار [٢]

ولعل هناك ملحوظة جديرة بالذكر وهى أن الجزار حينما بسط حاله وتحامق جاء ذلك ذلك كثيراً ضمن قصائد المدح فما جعل الجزار قصيدة برمتها خالصة لتحامقه إلا نادراً مثل قصيدته التى مطلعها :

ما كل حين تنجح الأسفار نفق الحمار وبارت الأشعار [٣]

وقصيدته التى يعارض بها امرأ القيس والتى يبدؤها بقوله :

قفا نبك من ذكرى قميص وسروال ودراعة لى قد عفا رسمها البالى [٤]

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٣) شعر الجزار ص ٢٥٧ .

(٤) شعر الجزار ص ١٨٧ .

خاتمة :

أشارت هذه الدراسة فى البـداية إلى مفهوم التحامق وأولياته فى الـشعر العربى ثم عرضت لأسباب التحامق فى العصر الممـلوكى الأول وهى أسباب قلما توافرت فى عصر من العصور ، وقد أدت هذه الأسباب إلى أن يظهر هذا اللون من الشعر بصورة لم تعهد من قبل فى أدب مصر الإسلامية ، وللباحث الحق فى أن يسجل عدة ملاحظات هى :

١ - وجدت بذور هذا اللون عند الشاعر الحطيئة لكنها كانت مغلفة بالسخرية والهجاء .

٢ - تعددت ألوان وموضوعات هـذا الشعر : فلقد تحامق الشعراء حـينما وصفوا دورهم وحيواناتهم ومطعمـهم وملبسهم وهيئتهم وأخلاقهم ومهنـهم وألقابهم ، وتحامقوا أيضًا حينما تعرضوا بالمسخ لبعض قـصائد الشعر العربى القديم فصوروا من خلال قالب المعارضات حالة فقرهم وعوزهم .

٣ - جاءت ألفاظ وأساليب ومعانى هذا الشعر سهـلة واضحة بسيطة وقد حاولت تبرير ذلك فى خلال الدراسة .

٤ - اتكأ شعـراء هذا اللون على بـعض الظواهر اللـغوية والفنيـة فى تشكيل لـوحاتهم التحامقية وكانت التورية والجناس والطباق والتشبيه والاستعارة من أهم هذه الظواهر التى أعانتهم على رسم هذه اللوحات .

٥ - تفوق بعض شعراء التحامق على بعض فى استخدام هذه الظواهر .

٦ - ليس معنى دخول بـعض الألفاظ العامية فى هذا الشعـر أن ندرسه على أساس أنه شعر عامى كما رأى أحمد صادق الجمال ، إنما هو شعر فصيح سهل بسيط تخللته بعض الألفاظ العامية أحيانا .

٧ - كثرة المقطعات وقلة القصائد وقد عللت لذلك عند الحديث عن البناء الفنى .

٨ - يمكن أن يكتفى فى دراسة تالية بفن التحامق بين الجزار والوراق وأثر العلاقات الإخوانية بينهما فى هذا الشعر ، كما يمكن أن يكتفى بدراسة شعر التحامق عند الجزار فقط فى دراسة موسعة فهو رائد هذا الفن فى ذلك العصر ويمكن أيضًا أن تدرس هذه الظاهرة فى العصور التالية وتكون امتدادا لهذه الدراسة .

والله الموفق وهو المستعان ونعم النصير .